مذكرة

عن مسألة السودان بين مصر وانجلترا

للامير

عمر طوسون

وزعت نسخ هذه المذكرة على رجال الحكومة الانكليزية
واعضاء البرلمان البريطاني والصحف المصرية والبريطانية

مطبعة الاسكندريه شارع سعيد الاول رقم ١٩ تلفون ٧٧ - ١٧

مذكرة

عن مسألة السودان بين مصر وانجلترا

للامير

عمر طوسون

وزعت نسخ هذه المذكرة على رجال الحكومة الانكليزية
واعضاء البرلمان البريطانى والصحف المصرية والبريطانية

مطبعة الاسكندريه شارع سعيد الاول رقم ١٩ تلفون ٧٧ - ١٧

تقدمة

اقدم هذه المذكرة الى حكومة انجلترا والى مجلس نوابها والى
الامة البريطانية وبواسطة صحافتها ؟

المذكرة

فى الوقت الذى يلوح فيه أننا على وشك أن نعقد اتفاقية بيننا وبين انجلترا ، وذلك بفضل ما ظهر من بعد نظر وزارة العمال الحاضرة وتشبعها بروح العدل والانصاف ، واحترامها مبادئ حقوق الشعوب ، تلك المبادئ التى نبذتها ويا للأسف الوزارات البريطانية السابقة ، وجعلت بيننا وبين الامة الانكليزية المطبوعة على تقديس هذه المبادئ حجباً كثيفة منذ احتلت انجلترا ديارنا . نعم فى هذا الوقت الذى ترفرف فيه روح التسامح والوئام على ما يظهر فوق رؤوس الفريقين ، اناشد الامة الانكليزية وحكومتها الحاضرة أن تمد يدها لحل مسألة لا يليق بكرامتها ابقاؤها معلقة بدون حل الى الآن . تلك هى مسألة السودان .

وانى لعلى يقين أنه متى وصلت الوقائع التى سأذكرها بعد الى جمهور الشعب الانكليزى ، يبادر الى حلها الحل العادل المنطبق على مبادئ الحق.

فأقول انهم اتهمونا بتضييع السودان مع أننا لم نضيعه ، وما كان ليضيع ابداً لو تركونا نعمل حسب ارادتنا واليك البراهين :

لقد تمكن عبد القادر باشا بالقوة المحلية التى كانت تحت امرته من قمع الفتنة واخماد نار الثورة فى الجزيرة كلها تقريبا . فهل كان يعجز عن اعادة الامن الى ربوع السودان اذا كان قد أمد بالاثنى عشر الف جندى التى فوض أمر قيادتها الى هيكس باشا ؟ اللهم لا .

فقد كانت الخطة التى وضعها خطة حكيمة وهى تنحصر فى أن يستمر مرابطا هو وجيوشه ومدفعيتـــه وأسطول البواخر على طول

مجرى النيل .

وفى هذا الوقت لم يكن بيد المهدى سوى كردفان وهى عبارة عن بيداء قاحلة لا تستطيع بحال من الأحوال أن تمير الجموع الملتفة حوله . فكان بذلك مضطراً للتخلص من هذا الموقف الى سلوك أحد هذين الطريقين :

فاما أن يخاطر بنفسه (وهذا أمر بعيد الاحتمال) ويهاجم جيوش عبد القادر باشا وهى متحصنة على النهر بمدافعها وبواخرها فتضربه الضربة القاضية

واما أن يبقى كما هو محصوراً فى كردفان (وهذا اكثر احتمالا) فيكون القضاء عليه محققاً بمرور الزمن أعنى أن الجوع لا يلبث أن يهاجم جموع اولئك الغوغاء فيفت فى عضدهم ويبدد شملهم فتخبو نار الثورة من تلقاء نفسها. هذا فضلا عن أن أنصار المهدى يكونون قد ادركوا أن حكومة هذا الرجل أقل رفقا بهم من حكومة مصر فينصرفون عنه ويهجرونه حالما تخمد جذوة الحماس التى تأججت بين ضلوعهم فى بادئ الامر.

قال سلاطين باشا فى كتابه : (السيف والنار) ص٢٣٢ بهذا الصدد:

لو صادفت نصائح عبد القادر باشا آذانا مصغية لجرت الامور فى السودان فى غير المجرى الذى جرت فيه ، ولكانت النتائج غير هذه النتائج السيئة.

فقد كان يرى عدم تسيير حملة كبيرة لاعادة فتح كردفان وأن تترك والثوار الذين فيها الآن وأن يبقى الجيش المصرى والمدد الذى يتلقاه مرابطا فى حصون قوية على طول مجرى النيل الابيض. وكانت القوات العسكرية التى تحت امرته كافية لقمع ثورة الجزيرة الواقعة

بين النيلين الازرق والابيض والايقاع بجيوش المهدي الآتية من الغرب والحيلولة دون تقدمها.

ولو اختيرت هذه الخطة لكان من المحتمل كثيراً أن يدب الفساد في صفوفهم . وتسودهم الفوضى بسبب اختلال الادارة عندهم وعدم وجود نظام ما يستندون اليه . وبذلك تستطيع الحكومة أن تسترجع الاراضي التي ضاعت منها ولو بالتدريج على ممر الايام . ولا ريب في أني لم اكن بمستطيع في ذلك الحين ان احتفظ بسيطرة الحكومة في دارفور . على أننا لو قدرنا في هذه الحالة ضياع هذه المديرية نهائياً فاننا نكون قد اخترنا أخف الضررين بلا مراء . ولكن لم يكن ذلك رأي القابضين على أزمة الحكم في القاهرة .

فقد ظهر أمر عال جاء فيه انه لابد من توطيد سطوة الحكومة بجيش يرسل تحت امرة الجنرال الانكليزي هيكس بمساعدة ضباط اوروبيين آخرين . أما عبد القادر باشا فقد استدعى وعين علاء الدين باشا الذي كان فيما سبق حكمدارا عاما لشرقي السودان بدلا منه .

فلم تكد تبلغ مسامع المهدي هذه الاخبار حتى وعاها وعمل لها حسابها واعد لها عدتها . اه

وقد حدث بعد ذلك أن فرضت علينا انجلترا استدعاء عبد القادر باشا فرضا . وبديهيا ان مصر لم تستدع قائدها المنصور من تلقاء نفسها وتلا ذلك أن حتمت علينا اعداد حملة على رأسها هيكس باشا وأركان حربه ، وهم وان كانوا ضباطا ممتازين ولهم دراية حسنة بمهنتهم ، الا انهم يجهلون تمام الجهل حالة البلاد وطبيعة أرضها . وبدلاً من ان يتبع اولئك الضباط خطة عبد القادر باشا التي هي غاية في الحكمة ويضعوها

لصب أعينهم ، ساقوا الجيش الى صحـــارى كردفان ؛ وهناك هلك منه من هلك ظمأ ، و من بقى قاتل فى ارض موافقة تمام الموافقة للاعداء وغير صالحة لقتال جيش منظم ، فعانى أشد الآلام ثم أبيد عن آخره اعنى أن ما كان منتظراً أن يحل بالمهدى ورجاله حل بجيشنا بسوء الخطة التى وضعت له .

فقل لى بربك من المسئول عن ضياع السودان بعد ئذ ، أمصر أم انجلترا ؟

واليك ما قاله الجنرال السيرفر نسيس ونجت باشا و هو أعرف القواد الانكليز بالمسائل السودانية ، بالصفحة ١١٥ من تقرير اللورد كرومر عن مصر و السودان سنة ١٩٠٦ بعد أن عاين ميدان القتال :

زرت ميدان الواقعة التى قتل فيها الدراويش المرحوم الجنرال هيكس باشا و افنوا كل جيشه سنة ١٨٨٣ . ومن الغريب أن العساكر كانوا فى حالة شديدة من العطش مع وجود بركة كبيرة من المياه على بعد ميل و احد عنهم ، ولكنهم لم يعلموا بها والمحل واقع على بعد ٣٠ ميلا جنوبى الابيض فى وسط غابة كثيفة ، و لا اشك فى أنه لو كانت النجدة المرسلة لرفع الحصار عن الابيض اكثر عدداً وأقوى عدداً لكانت لاقت ما لاقته حملة هيكس . وارسال تلك الحملة فى أحوال كهذه يعد ضربا من الجنون ، وهو اكبر دليل على أن الحكومة فى ذلك الحين لم تكن عالمة بحقيقة الحال ولم تحسب حسابا للصعوبات التى لا بد لجيش عظيم من ملاقاتها فى اثناء مروره ببلاد كهذه . اه

وقد وصل اللورد كرومر من انجلترا الى مصر بعد سفر الحملة بعدة أيام ، فكتب عنها فى تقريره السابق الذكر ص ١١٦ ما يأتى :

لم اعثر على كتابة من الجنرال هيكس يستدل منها على عدم استصوابه لهذه الحملة . ولكن لا ريب عندى فى أنه كان عالما حق العلم أن الجيش الذى تحت قيادته لم يكن صالحا للقتال ، ولم يشأ أن ينصح للحكومة بالعدول عن هذه الحملة حتى لا يقال انه تردد فى تأدية مهمة محفوفة بالاخطار . اه

وانى أقول تعليقا على هذا القول ، دون أن يكون لى ادنى قصد الى انتقاص الجنرال هيكس أو تسوىء ذكرى هذا الجندى الذى فاضت روحه فى حومة الوغى وصار فى عداد الغابرين ، ان هذا التأويل من اللورد كرومر لا يتفق مع الواقع

وبيانا لذلك اذكر لك الكيفية التى ائتلفت بها هذه الحملة والحوادث التى توالت عليها

لما تألفت الحملة بمصر وأرسلت الى السودان نيطت قيادتها العامة بضابط مصرى هو سليمان نيازى باشا ، وتعين هيكس باشا أركان حرب وقائداً ثانيا لها ، ودامت هذه الحالة الى ان انتصر الجيش فى واقعة المرابيع فى ٢٩ ابريل عام ١٨٨٣ .

وكتب عنها السير فرنسيس ونجت باشا فى كتابه (المهدية فى مصر والسودان) ص ٧٥ ما ترجمته :

طهر النصر البلاد من الثوار بين الخرطوم وسنار وعادت قبائل كثيرة وقدمت الطاعة الى الحكومة . وصار هيكس فى حالة تمكنه من توجيه النظر الى كردفان منبع الثورة . غير أنه كان عليه قبل هذا أن يزيل من طريقه العراقيل التى كان يلقيها له كبار الموظفين فى الخرطوم بعد ما مرت ساعة الخطر الوقتى . فشمر عن ساعده وحارب هذه الدسائس محاربة طويلة استغرقت شهر مايو ويونيه ويوليه ولم تستبعد

الحكومة اكبر عائق يقوم فى وجهه الا وهو سليمان نيازى باشا الا بعد أن قدم هيكس استقالته. وعلى أثر ذلك حل محله فأصبح هيكس باشا القائد العام للحملة التى سترسل الى كردفان. اه

فماذا يستطاع أن يستنتج من هذا غير أن هيكس باشا كان يريد أن تكون يده هى العليا فى كل أمر ورأيه فوق كل رأى، فقدم استقالته لكى يزال من أمامه اكبر مخالف له الا وهو سليمان نيازى باشا الضابط الوحيد الذى يعلوه فيقال من منصبه ليخلو له الجو ؟

ولا مساغ للشك فى أن تغييراً له مثل هذه الأهمية، لا يمكن حدوثه الا بتدخل قوى من قنصل بريطانيا العام بالقاهرة، وهذا مما يبرر القاء المسئولية الكبرى على حكومة انجلترا

فمن البديهى اذن الا يجد اللورد كرومر شيئا مما توقعه من هيكس باشا لانه هو الذى اختط خطة هذه الحملة وهو ايضا الذى دبرها. ولو كان الامر على خلاف ذلك لكان من واجبه أن يلفت انظار الحكومة التى يعمل لها للاخطار التى تقف فى سبيله، ثم يقوم بواجبه بعد بيانها كجندى

ويظهر فوق ذلك أن الضباط الانكليز انفسهم عندما أمعنوا فى تلك الصحارى لاح لهم شبح خطئهم. غير أنه لسوء الطالع كان قد قضى الامر وسبق السيف العذل.

والدليل على صحة ما تقدم ما دونه سلاطين باشا فى كتابه: (السيف والنار) ص ٢٤١ قال:

بعد وقت قليل وصلت الى مذكرات أمير الألاى فركهار رئيس أركان حرب ومستر أدونوفان مكاتب جريدة ديلى نيوز. فلما قرأتها جميعها من أولها الى آخرها بعناية تامة ألفيتها مفزعة محزنة. فقد أطنب كلاهما

فى وصف الشقاق الذى كانت حلقاته مستحكمة بين الجنرال هيكس وعلاء الدين باشا وحمل فركهار على رئيسه بشىء من العنف لزلاته العسكرية ، واستشعر الاثنان بالكارثة التى حلت . ولام فركهار رئيسه وعنفه تعنيفا مرا لتقدمه بقوة ساءت حالتها وروحها المعنوية حتى بلغت مبلغا يؤدى بها من غير نزاع الى نزول كارثة . اه

ومن الامور الطبيعية التى لاتحتاج الى نزاع أن الجيش الذى يكون مسوقا الى هلاك محقق بالعطش وبما سينزله به عدوه تحت امرة رؤساء أضاعوا كل ثقته بهم لقيادتهم له الى موارد الحتوف والهلكة لا يمكن أن تكون روحه فى مستوى عال .

وقد اضطررنا بعد ذلك الى أن نفتح السودان فتحاً جديداً ، وأن تكون عساكرنا ضعف عسكر الانكليز ، وأن نؤلف فوق ذلك حملة خاصة تتكفل بانشاء السكك الحديدية التى بدونها لا يمكن أن يتم فتح ما ، والتى لايستطيع أى جيش انكليزى أن ينشئها .

وبعد أن تم كل شىء وانتهى كل امر أجبرنا على أن نوقع عقد اتفاقية اشتراك غير مشروع لان الخديوى ليس له أى صفة تخوله التنازل عن أى جزء من الاراضى المصرية لمصلحة كائن من كان والآن ينكرون علينا حتى هذا العقد بعد كل الضحايا التى أجبرنا على تضحيتها جبرا ، لاننا امتثلنا أن نتبع رغم انوفنا الاوامر التى املتها علينا انكلترا وفرضتها علينا فرضا ؛ ثم بعد هذا تبقى هى وحدها اليوم متمتعة بفوائد هذه الاتفاقية . أما نحن فيكفينا أن نرجع صفر اليدين .

ولم تكتف انجلترا بذلك كله ، بل اقتطعت من السودان القسم الجنوبى من مديرية خط الاستواء القديمة والحقته بأوغندا واعتبرته

أرضا بريطانية. وهذا القسم هو الذى سيقام عليه خزان بحيرة البرت نيانزا ، وله أهميته العظمى لدى مصر .

فانكلترا التى طلبت من فرنسا إخلاء فاشودة باسم القطر المصرى ، كان يجب عليها بعد ذاك أن تطبق على نفسها مع مصر المبدأ الذى اتبعته مع فرنسا بعينه مادام لا يوجد فرق بين هذه الحالة وتلك .

ويؤخذ من كل ماسلف أن السودان لم يضع الا لان الانكليز أجبروا مصر على اتباع خطة أفضت الى ضياعه ، وانه لو ترك لها الامر لما أضاعته مطلقا .

وبما أن مصر اضطرت بعد ذلك كله أن تفتح السودان فتحا جديدا ، فلا يجمل بشرف دولة عظمى كالدولة البريطانية التى تحتله الآن والتى لها فيه الامر والنهى أن تحرمها عن حقوقها فيه